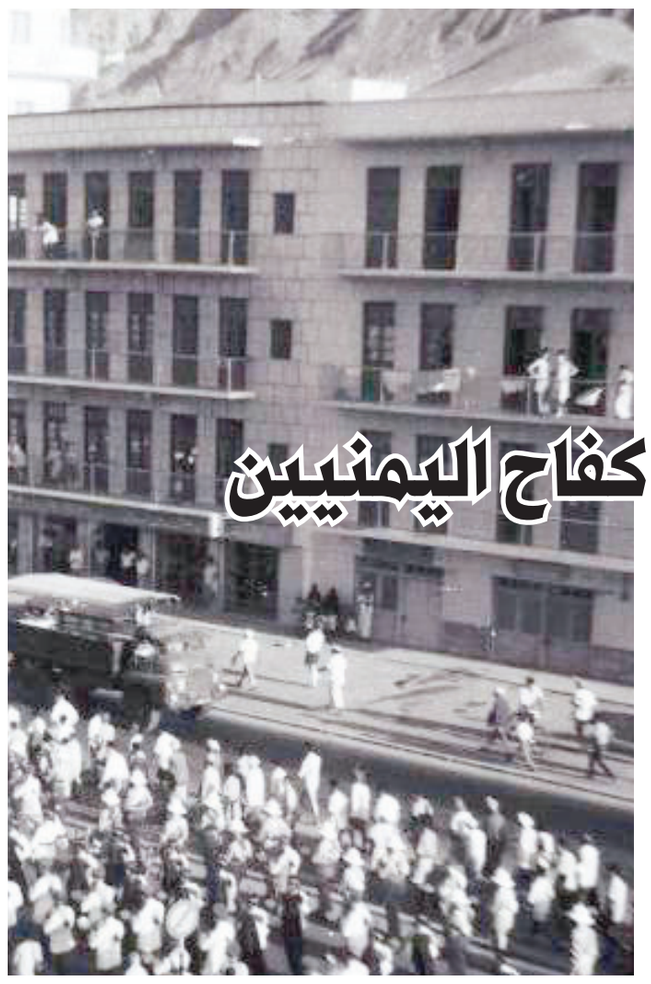

لماذا عدن ؟! وماذا يعني لها يوم الـ(1967/11/30م)

الاستقلال..

ثوب الحرية المنسوج من فصول كفاح اليمنيين

لماذا عدن ؟؟ هذا هو السؤال الأبرز في فصول تاريخ هذه المدينة العالمية ، التي كانت حلبة العصور المتعاقبة للصراعات بين القوى الدولية منذ حوالى ١٢٠٠ عام.. لا أعتقد أن سطور التاريخ لم تجب على هكذا تساؤل .. لكن الأمر تطلب سنوات من الإقامة والترحال عبر طرق البر والبحر ليوصلنا - والعالم - التاريخ إلى تعليل مفاده : إن المزايا المكانية الجوهرية لعدن وإطلالتها الجغرافية المميزة على مدخل البحر الأحمر وساحل البحر العربي وبعدها الأمني والإقليمي منذ ماقبل الميلاد جعلها محط أنظار الحضارات الفارسية والحبشية والرومانية.. الأحرى من هذا الوصف المؤرخ لعدن مكانا وإنساناً .. ما الذي دار على هذه المساحة ؟.. وماذا يعني يوم ٣٠ نوفمبر لعدن أولاً واليمن ثانياً؟

إعداد / محمد محمد إبراهيم

منذ اكتشاف عدن ملاحياً أخذت الحملات الأجنبية تتكالب لاحتلالها والسيطرة على الجيوبوليتيكي

بعد انسحاب القوات المصرية من اليمن في عام (1840) انفردت بريطانيا بمقدرات الجنوب اليمني كلها

فكر الإنجليز طويلا بذرائع للاستعمار فنجحوا عام 1839 بعد جنوح (دوريادولت) الهندية قرب ساحل عدن

كان الإنجليز يعرفون انهم لن يستطيعوا البقاء في عدن دون مقاومة ، ولذا عمدوا إلى بناء القلاع والحصون

توالت الانتفاضات اليمنية على المستعمر وصولاً إلى يوم الاستقلال الذي أنزل راية الاحتلال أمام أنظار العالم

التاريخ العتيق لهذه الحاضرة السياسية والاقتصادية يشير ، إلى «أن الإمبراطورية الرومانية أقوى إمبراطورية ظهرت على سطح الأرض حينئذ كانت ترفض رفضًا قاطعًا كل من يحاول أنّ ينافسها سواء في الميدان التجاري أو السياسي ولذلك عمدت بعد سنة(٢٤ ق . م) إلى تدمير ميناء عدن حتى لا تكون منافسا لموانئها في البحر الأحمر المسيطرة من جهة وتكون أيضًا بؤرة مقاومة للوجود الروماني في حوض جنوب البحر الأحمر من جهة أخرى . وبالرغم من الخراب والدمار اللذين لحقا بالميناء ، فإنه لم تمض سنوات قليلة ، إلا وعاد ميناء عدن يتوهج بالنشاط والحركة التجارية الكبيرين لكون أهل عدن الذين جبلوا على الصبر في مواجهة الشدائد والمتحلين دائمًا بالأمل العريض تمكنوا أنّ يبثوا الحياة مرة أخرى في أوصال مينائهم ، وصار الميناء من أشهر الموانئ في تاريخ الحضارات القديمة حينذاك وصار ملتقى تجارة الشرق والغرب « ومفتتح الحضارات ومسالكها البحرية إلى فضاء اليمن السعيد..

عدن بعد الاسلام

«وفي العصور الإسلامية تعاقبت على حكم عدن عدداً من الدولة اليمنية والدول الوافدة كالدولة الأيوبية ، وتذكر المراجع التاريخية أنه بمجرد أنّ تسيطر إحدى تلك الدول كالزيادية ، والصليحية ، والزريعية ، والرسولية ، والطاهرية ، سرعان ما تيمم جهها إلى عدن دُرة الموانئ اليمنية لكونها كانت المدينة الهامة التي تدر الذهب ، والفضة ، والأموال الهائلة إلى خزائنها .

وكانت القبائل لا تستكين أو تذعن لتلك الدول إلا بعد أنّ تبسط نفوذها عليها فتدخل بعدها تحت لوائها . ونستخلص من ذلك بأنّ عدن عبر العصور ، كانت لها الأهمية الخطيرة على خريطة اليمن السياسية والاقتصادية . هي من جعلت الملك الطاهري عبد الوهاب بن داود أن يسن قانوناً يحرم على الجميع دخول عدن بغير إذن صريح منه، حفاظا على أمنها، عندما شعر هذا الملك الطاهري بدنو أجله في(٨٩٤هـ) كتب لولده (عامرتصريحاً يسمح له بالدخول إلى عدن، وأوصاه بألا يذيع نبأ وفاته إلا بعد أن يتمكن من الاستيلاء على المدينة وإقرار أمنها وإدارتها.. وبالتالي فإنها كانت آخر معاقل الدولة الطاهرية التي تقهقرت إليها، ولم يستطع أحد انتزاعها من أيديهم إلا على يد الأتراك الذين غدروا بآخر حكام عدن الطاهريين وهو عامر» بن داود الذي صلبه الأتراك على سارية إحدى سفنهم مع عدد من وزرائه.

في مرمى الأطماع

تذكر المراجع التاريخية أن عدن تعرضت خلال التسعة القرون في الألفية الأولى من تاريخها المكتوب إلى أكثر من ثلاثين غزوة برية وبحرية. أي أكثر من غزوة في كل جيل إلى ما قبل الغزو البرتغالي الذي داهم عدن عام ٩١٩هـ .. «وقد سجلت المصادر خمس غزوات حاسمة بحرية دار فيها الصراع على وحول جبل صيرة وانتصرت المدينة في ثلاث منها حين كانت في أفضل عهودها وفي ظل دول فتية كالزريعيين والطاهريين وهوجمت سواحلها عدة مرات ونهب ما في مينائها من سفن وما حواه من كنوز، وعاث فيها المغامرون من سراقة الموانئ من كافة الكيانات الملاحية في البحر العربي والهند وتم احتلالها وهي في أضعف أحوالها في نهاية الدولة الطاهرية، وفي العقد الأول من القرن التاسع عشر. وفي الحالتين الأخيرتين كانت الحرب قد تحولت استراتيجيتها إلى الأساطيل البحرية المحملة بالمدافع الضخمة طويلة المدى».

اكتشاف عدن عالمياً

ومنذ اكتشفت عدن عالميا كموقع ملاحي في أهم ممرات الخارطةٍ الدولية على أيدي بحارة وملاحي أوروبا وتحديداً ما بعد إكتشاف (بارثلمي دياز) للطريق الملاحي الجديد الذي أطلق عليه (رأس الرجاء الصالح) تحولت الأهمية المحلية والاقليمية المحدودة - بحدود خارطة شبه الجزيرة العربية ومنطقة الشرق الأوسط - لمدينة عدن إلى أهمية استراتيجية عالمية مرتبطة بشئون التجارة العالمية ومصالح عدد كبير من كبريات الدول الأوروبية والأفريقية والأسيوية ، إلى الدرجة التي أولاها ملوك أوروبا اهتمامهم الخاص، وحدا الأمر بملك البرتغال (هنري الملاح) إلى إيفاد بعثة تجسسية تستكشف طرق تجارة الشرق ومراكزها الحيوية، فعادات إليه البعثة بعد حوالي عام موصية له بوضع يديه على منطقتين مهمتين -فقط- إذا أراد السيطرة على تجارة العالم و هاتان المنطقتان وهما: (هرمز) و (عدن).

ومنذ تلك اللحظة لم يستقر لمدينة عدن حال، وأخذت الحملات الأجنبية المختلفة (الحبشية، والفرنسية، والبرتغالية، والأسبانية، والإيطالية، والبريطانية) تتكالب على عدن لاحتلالها والفوز بمركزها الجيوبوليتيكي دون أن ينجح أحد منهم في بلوغ مأربه.

فمدينة عدن أصبحت نقطة منتصف الطريق بين أوروبا وجنوب شرق آسيا، ومياهها عميقة جداً وخالية تقريباً من الشعاب المرجانية، وتطل على مساحة واسعة من البحر العربي والمحيط الهندي، وتصنف مياهها بكونها (مياه دافئة). وبمرور الزمن تعاظم النشاط التجاري الأوروبي مع الهند وبقية دول جنوب شرق آسيا فأصبحت تلك الدول تخشى على مصالحها الكبيرة من التعرض للمهاجمة أو الابتزاز من قبل الدول التي بمقدورها فعل ذلك إذا ما أرادت.. فبات التفكير بعدن أشبه بالبحث عن شرطي حراسة يؤمن السلامة.

لكن بعد عدة عقود من الزمن أضيف للقضية بعدً آخر.. إذ نجحت بريطانيا باستغلال ما شاعت تسميته بـ(الكشوف الجغرافية) لتبسط نفوذها على الهند ومناطق عديدة في جنوب شرق آسيا وحولتها إلى مستعمرات تابعة لسيادتها . وكذلك فعل البرتغاليون والأسبان في مناطق الخليج العربي، وتحولت تلك الحقبة إلى عصر صاخب للصراعات الدولية بين دول أوروبا لالتهام دول آسيوية وأفريقية تنافساً على المصالح والتراث، إلى درجة وصف تسابقها على أفريقيا بأنه (عطش أوروبا للذهب).

ذرائع بريطانيا

بعد حبكة الاحتلال البرتغالي وقصة صناعة المقاومة المزيفة والعميلة التي شكلت أبشع وأخطر لعبة صليبية استعمارية في المنطقة العربية والإسلامية ، وبعد انكشاف مسرحها ودحرها على يد العثمانيين .. بدأ الإنجليز يفكرون ولسنوات على صناعة ذرائع توصلهم إلى دحر الوجود العثماني على طرق الملاحة الدولية ومن ثم تمكنهم من السيطرة على عدن وكان لهذا التفكير الاستعماري مسلسل طويل الفصول لا يتسع المقام لذكره .. لكن الأهم في ذلك هو معرفة أن بريطانيا بدأت خططها الاستعمارية لعدن بعدد من المقدمات حيث أرسلت في بداية الأمر الكابتن هينز أحد ضباط البحرية إلى منطقة خليج عدن في عام ١٨٣٥م وذلك لمعرفة مدى صلاحية المنطقة لتكون قاعدة بحرية ومستودعا للسفن البريطانية وقد أشار هينز في تقريره الى ضرورة احتلال عدن لأهميتها الاستراتيجية . وكان لا بد للانجليز من عذر يبررون به احتلالهم لعدن وقد ساقت لهم الصدفً حادثة استغلوها استغلالا ناجحاً ففي عام ١٨٣٧م جنحت سفينة هندية هي :(دوريادولت) ترفع العلم البريطاني بالقرب من ساحل عدن وادعى الانجليز ان سكان عدن هاجموا السفينة ونهبوا بعض حمولتها وان ابن سلطان لحج وعدن كان من المحرضين على نهب السفينة .

وهنا كان لابد للانجليز من استغلال هذه الحادثة لتتحقق نوايا الانجليز في الاستيلاء على عدن وتتطورت الامور لترسل الحكومة البريطانية الكابتن هينز لإجراء مفاوضات مع سلطان لحج ولكنها باءت بالفشل بعد محاولة سلطان لحج اعادة البضائع المسروقة ودفع قيمة ما تلف أو بُيع منها إلا ان هينز لما يوافق لأن بريطانيا كانت تريد عدن نفسها . وفي مطلع ١٨٣٩م اعدت حكومة الهند البريطانيا الاجراءات للاستيلاء على عدن وقامت ببعض المناوشات بين العرب في عدن وبعض جنود السفن البريطانية المسلحة التي رابطت ثلاثة ايام بالقرب من ساحل عدن انتظارا لوصول السفن الباقية وفي ١٩ يناير ١٨٣٩م قصفت مدفعية الاسطول البريطاني مدينة عدن ولم يستطع الأهالي الصمود امام النيران الكثيفة وسقطت عدن في ايدي الانجليز بعد معركة غير متكافئة بين اسطول وقوات الامبراطورية البريطانية من جانب وقوات قبيلة العبدلي من جانب آخر. إضافة إلى ما تبقى من فلول القوات العثمانية والقوات المصرية التابعة لـ(محمد علي باشا) الذي تحالفت ضده الدول الكبرى لينتهي الأمر بانسحاب القوات المصرية من اليمن في عام ١٨٤٠ م.. وبهذا الإنسحاب انفردت بريطانيا وحدها بمقدرات الجنوب اليمني كلها وبدأت انجلترا عشية احتلالها لعدن في تنفيذ سياسة التهدئة في المنطقة حتى تضمن استقرار الامور في عدن بما يحقق مصالحها الاستراتيجية والتجارية والبحرية .. وبناء على ذلك تمركز البريطانيون في مدينة عدن ، وكانت تشمل كريتر ومناطق المعلا والتواهي ، وبعد ذلك بفارق زمني خور مكسر.. ليبدأ الانجليز ملاحظة السكان بمعالجة الجرحى وتعويض بعض الاسر تعويضا ماليا مما اصابها من جراء المعارك .

مخاضات الاستقلال

كان الإنجليز يعرفون انهم لن يستطيعوا البقاء في عدن دون مقاومة ، ولذا عمدوا إلى بناء القلاع والحصون.. وكان توقعهم صحيحا فلم يمض عام واحد على الاحتلال حتى انفجرت المقاومة اليمنية من جديد فقد زحف الى عدن حوالى خمسة آلاف مقاتل من قبائل لحج وأبين ومناطق الأرياف اليمنية القريبة من عدن، ودارت بينهم وبين القوات البريطانية معارك حامية بالقرب من جبل حديد ولكنهم انهزموا بسبب الضرب الشديد الذي واجههم به البريطانيون من البر والبحر وقام الاسطول البريطاني بمحاصرة ساحل أبين ومنع السفن التجارية من الدخول الى ميناء (شقرة) عقابا للسكان الذين اشتركوا في المقاومة ولكن القبائل لم تستسلم بل عادت الى مناطقها تستعد للمعارك القادمة وقد قطع سلطان لحج الطرق المؤدية الى عدن وزاد من الضرائب على المنتجات الزراعية التي تذهب الى عدن حتى يقطع التموين على الانجليز وقد واصلت القبائل هجماتها على عدن عدة مرات لإخراج الانجليز منها ولكنهم كانوا يفشلون امام القوات البريطانية المدربة تدريبا جيدا وقوتهم البحرية القوية ففي إحدى المرات تجمع رجال القبائل في بير احمد وتمركزوا هناك ليمكنوا القوافل التي تحمل المنتجات الزراعية الى عدن فهاجمهم جنود الاحتلال ودمروا الموقع وتوجهوا الى الشيخ عثمان ودمروا قلعتها .

ولا يتسع المقام هنا لذكر المعارك المتتالية التي دارت رحاها داخل عدن بين القبايل اليمنية المختلفة وقوات الانجليز ، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن انتفاضة الأرياف - الانتفاضات الشعبية في مناطق الأرياف - مثلت صورة أخرى من صور الرفض للوجود الاستعماري مثل انتفاضة بن عبدات في حضرموت من عام ١٩٣٨م - ١٩٤٥م وانتفاضة قبائل ردفان في السنوات ١٩٣٦، ١٩٣٧، ١٩٤٦، ١٩٤٩، ١٩٥٤ وكذا انتفاضة الواحدي سنة ١٩٤١م وانتفاضة حضرموت في السنوات ١٩٤٤، ١٩٥١، ١٩٥٢، ١٩٥٥، ١٩٦١، وانتفاضة بيحان عامي ١٩٤٦م، ١٩٤٧م وانتفاضة الصبيحة عام ١٩٤٢م وانتفاضة الفضلي في الأعوام ١٩٤٥، ١٩٥٦م ١٩٥٧م اضافة إلى انتفاضة الحواشب عام ١٩٥٠م ،وانتفاضة دثينة عام١٩٥٨م وانتفاضة يافع في الأعوام ١٩٥٨م ،١٩٥٩م، وصولاً إلى انفجار ثورةٍ الرابع عشر من أكتوبر ١٩٦٣م- التي أتت امتداداً لثورة السادس والعشرين من سبتمبر ١٩٦٢م في شمال الوطن- والمعارك الشرسة التي تلتها سواء خارج عدن أو في العمق الاستراتيجي للوجود البريطاني داخل شوارع وأحياء عدن.

إنزال راية الاستعمار

كل هذه المخاضات والتضحيات أوصلت الطرفين كلاً إلى قدره المحتوم .. إذ أوصلت المستعمر البغيض إلى أن يرحل بقوته وظلمه وطغيانه رغماً عن رعونته الاستمعارية ، بينما وصل اليمنيين بوطنهم الجريح المثقل بالخسائر من خيرة أبنائه إلى اليوم المنشود وهو يوم الـ(٣٠) من نوفمبر ١٩٦٧م ليلبس ثوب الحرية الذي نسجته فصول الكفاح اليمني الطويل لتعود عدن إلى اليمن ثغراً باسماً ، بعد ١٢٩ سنة من الاحتلال .. وفي خضم تلك اللحظات التي صاحبت انزال العلم البريطاني من سارياته في عدن .. كان اليمنيون يعشون ابتهاج النصر بنهاية الوجود العسكري للإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس لكن السؤال الأهم هو: لماذا قرر الاستعمار البريطاني الرحيل عن جنوب الوطن في الـ٣٠ من نوفمبر ١٩٦٧م وبعد حوالي ١٢٩ عاماً من الاستعمار؟

لعل الإجابة على هذا السؤال موجودة : .. شهادات الكثير ممن عاشوا لحظات الكفاح المسلح وتضحياته ولحظات رحيل الغازي والمستعمر البغيض إذ يؤكدون إن الاستعمار البريطاني في الحقيقة لم يقرر الرحيل بقرار ذاتي وانما جاء هذا الرحيل نتيجة طبيعية لثورة ٢٦ سبتمبر التي سبقت ثورة ١٤ أكتوبر والتي تعتبر الثورة الأم ومن ثم تلاحقت الانتفاضات الشعبية حتى قيام ثورة ١٤ أكتوبر المجيدة الذي أجبر الاستعمار تحت ضربات الثوار على الرحيل من جنوب الوطن، أما ان الاستعمار يقرر أن يرحل أو لا يرحل فهذا غير صحيح، لأن أي استعمار يريد البقاء لأطول فترة ممكنة، لذلك رحيل الاستعمار لم يأت نتيجة أية اتفاقات أو ماشابه ذلك وانما رحل من جنوب الوطن مجبراً بعد المقاومة الشرسة من قبل الثوار سواء في جنوب الوطن أو في شماله والذي ساند وعجل في قيام ثورة ١٤ أكتوبر المجيدة.

الهوامش :

الدكتور سيد مصطفى سالم ؛ البحر الأحمر والجزر اليمنية تاريخ وقضية ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م ، الناشر : مؤسسة الميثاق للطباعة والنشر - صنعاء - الجمهورية اليمنية - .

سلطان ناجي ؛ التاريخ العسكري لليمن ١٩٦٧ --- ١٨٣٨ ، الطبعة الثالثة - صنعاء - ٢٠٠٤ ، الناشر : دائرة التوجيه المعنوي .

الدكتور محمد عمر الحبشي ؛ اليمن الجنوبي سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ، ترجمة : الدكتور إلياس فرح ، الموقع الالكتروني: http://www.ccau.edu.ye/adencity/AdenCapture.htm

□□ المكتبة الإسلامية الشاملة.. .SH.REWAYAT٢ COM ○○؟محمود شاكر؟ صاحب ؟موسوعة التاريخ الإسلامي؟ في كتابه ؟المغالطات؟ ١٤october.com/Print. .http://www-٤٩٢d-b٥٧٣-٣٢a٣-٨٨٤٣٨da٣=aspx؟newsid ٤٣b١٢٦٥٤dd٧١ newsweekarticle./٦٧,٢٢٧,١٧٥,١٢٧//:http ٣٠٨٣٨=php؟sid

الـ 30من نوفمبر كان المحطة الأبرز للانطلاق نحو وطن الـ 22من مايو والتحولات العظيمة التي شهدها اليمن، وتجسيداً واقعيا لعظمة التضحيات التي قدمها اليمنيون.

عبدربه منصور هادي
نائب رئيس الجمهورية